

بسم الله الرحمن الرحيم وداعاً؛ أيها الحكيم!

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْفَقِيرُ ﴿الملك: ١ - ٢﴾

فاتحة سورة عظيمة عظمة ملك الله، وحقيقة خالدة قاهرة تتحدى كل ما سوى الله.
نستلهم هداها في ما يحيط بنا من أهوال وابتلاءات، وما يقرع رؤوسنا وأسماعنا من
خطوب داهيات.

هكذا في كل يوم ناع برحيل عزيز، ومصاب قريب، وانهيار سارية من بناء أمتنا،
وثلم حصن من حصون وطننا! وهل نملك عند نزول الأقدار إلا اللجوء إلى الواحد
القهار، نسأله اللطف فيما قضى، وحسن العقبي فيما هو آت.

أجل؛ نودع اليوم أحد أعمدة الخير في وطننا، وقد فجعنا بالموت يهدّ جبلا من أمتنا؛
إنه الدكتور أحمد بن بابا بيوض، رجل من نفيس معادن الرجال، ومثل سيظل قدوة
للأجيال، تمثلت فيه معاني العلم المكين، والإيمان الراسخ، والخلق الرفيع، والتواضع
الشامخ، قدوة للشباب المثقف الغيور، العامل بإخلاص ودأب، لصالح الأمة والوطن.
بلغ في العلم عليا المراتب، فما اتخذ سببا للتعالي أو التغالي، وفتحت أمامه أبواب
المناصب فما اغتر بها، ولا شغلته عن رسالته، وبناء مجد أمته.

قضى حياته يدعم أهل الخير، يرشد ويهدي، وينصح ويسدّد مسار الشباب،
ويستبشر لمساعي المخلصين. دأبه زرع الأمل، وتحفيز كل جهد خير في كل الميادين.
عرفته أواخر سبعينيات القرن الماضي ضمن طلبة الجامعة، الذين ابتدروا لإقامة
الأسابيع الثقافية بمدينة القرارة، وحضر تدشين أول هذه الأسابيع فضيلة الإمام الشيخ
بيوض رحمه الله، فابتهج للمبادرة، واطمأن إلى الأمانة أخذها فتية آمنوا بربهم، وصدقوا
عهدهم لأمتهم.

ومن تلك السنة انطلقت هذه السنة المباركة، وتواصلت الرسالة ما يربو على أربعين
سنة، وعمت أنشطة طلبة الجامعات قرى الوادي وانداحت إلى مدن التل، وصارت سنة
حميدة، تجلت فيها رسالية شباب الجامعة، في توظيف العلم لخدمة المجتمع، ومبادرة
المثقف ليكون محور الإصلاح، يبرهن عن قدراته أولاً، ثم يرشحه المجتمع لقيادته ثانياً.

أذكر الدكتور بيوض طبيباً في عيادة له بوسط العاصمة، يتهافت الناس ليحظوا
بموعد فيها، وحين تدخل عليه تشعر بالراحة والشفاء قبل أن يصف لك الدواء، ويظل
محاصرك بالأسئلة وتقصي أسباب دائك، حتى تكاد تضيق ذرعاً، وقد يخيل لبعض

القاصرين أن هذا عمل من ليس له عمل، ولكنه في الواقع عملٌ ليوم لا يكون فيه عمل. لم يتخذ مهنة الطب سجلاً تجارياً، يعدد فيه المراجعين بعدد دقائق اليوم، ثم يأنس إلى صندوق الحساب آخر النهار وقد تزامت فيه الملايين، بل كان همه راحة المريض واستقصاء أسباب الشفاء، ولا يعنيه كم يناله من مال، فجميع ذلك إلى زوال، والباقي دعوات الخير التي لا تبلى، وجزيل الثواب يوم لقاء ربه الأعلى.

وحين انتقل إلى عاصمة الأوراس، وكان عمله في مستشفى مدينة باتنة، تحول المستشفى إلى محجٍّ للمراجعين من كل مدن الوطن، يسألون عن الدكتور بيوض، ويسعون ليحظوا بموعده معه، لِمَا بلغهم من نصحه وإخلاصه، فضلاً عن كفاءته ومهارته. وشهد من عاصره وعاشره في باتنة أنه مثل عزيز النظر، في زمن التسبب والتطبيب بلا ضمير.

وكم كانت جماعة باتنة محظوظة به في نشاطها الاجتماعي والمسجدي، فغنم شبابها وطلبتها من فيض حكمته، ونهلوا منها في جلسات الحوار والتثقيف الصحي والاجتماعي معه، فضلاً عن تحليلاته ومواقفه من قضايا الساعة في دوائرها المنداحة من المجتمع المحلي إلى الوطني، إلى العالم الإسلامي. وانتهاء بها إلى أفق العالم الرحيب. كان في كل هذه المجالات خير طبيب، بل حكيماً بكل المقاييس. نصوحاً حريصاً على التوجيه، واستنفار الطاقات؛ للإسهام بإيجابية ووسطية واعتدال، محفزاً للشباب أن يظل وفيًا لمبادئه، معترفاً بقيمه وأصالته، فخوراً بانتمائه وهويته، ساعياً للتميز في كل مجالات العلم والعمل.

وحين لذ لأهل باتنة السمر، باغتهم القدر في جنح الليل قبل البكور، بنهاية نصيبهم من الدكتور، فاخطفته العاصمة وبكته باتنة، ولم يكن لها أمام اختيار الأمة من قرار. وارتقى إلى البرلمان زكياً مباركاً من الأمة كلها، فكان فيها صوت الحق والعدل، ولسانه الحكمة والكلمة الفصل. وشهد له بمواقفه وحصافته من كان حوله من النواب والمسؤولين، وظل كذلك وفيًا لرسالته وأمته.

حتى اختير مستشاراً في الهيئات العليا للوطن. وكان شغله الرئيس في ظل هذه المحطات تصحيح الأنظار والمفاهيم حول مجتمعه الصغير ووطنه الكبير، وحول التاريخ والهوية والانتماء، والدين والوطن والسياسة، وتحيين الفرص لإسماع كلمته في مختلف المناسبات. والتعبير عن مواقفه بكل حكمة وثبات.

وحظي أبناء العاصمة باحتضانها لابن الأمة الوفي، فكان نصيبهم منه موفوراً، ومضت سنوات من العمل الدؤوب مع مختلف الجهات لما فيه الخير العام للأمة والوطن.

ولا أزعـم أنـي بهـذا الجـهـاد وتـفـاصـيله عـليم، فأهـل مكـة أدري بشـعـابها، ولـكن يـقـيني أن له في كل قلب بصمة من كلمة طيبة، ومعاملة حسنة، وأيديه البيضاء لا يحصيها إلا من عدّ الأنفاس، وأحصى كل شيء عددا.

ولكن الكلمة الجامعة؛ أنه كان كلمة جامعة، وقلعة جامعة، ورابطة جامعة. وكأنه آمن بالجامعة التي علمته، ووضعت قدميه في معراج الريادة، وفتحت عقله على أسباب السعادة، فجعلها شعارا له في سعيه الدؤوب، وجسدها سلوكا، وسيرة مشرقة كالشمس ليس لها غروب.

واليوم شاءت الأقدار أن يختطفه هذا الوباء، دون سابق إنذار، والأمة بأمس الحاجة إلى رأيه ومشورته، وإلى خبرته ليعالج أدواءها الفكرية والحضارية، فضلا عن عللها المادية والخلقية. ولكن شوقه إلى الأحبة الراحلين برّح به فناداه ولم يستشر أهله، كما كان حاله في محطات حياته المتوالية، فلبى النداء دون تردد أو اعتذار، إذ علمته مهنة الطب أن الحياة قاعة انتظار، والموعد الحق رضوان المنعم الغفار، فسعى إليه في شوق عظيم، تحدوه روحه في معراجها إلى دار النعيم.

أجل، هكذا قضى الله أن يختارك بهذا الداء، ولم يشفع لك أنك طبيب تصف للناس الدواء، والله في كل أجل حكمة وابتلاء، ولئن ودّعنا فيك الرجل، فما ودّعنا فيك المثل، مثل خالد تحفظه الأجيال، وترفعه الألسن خير دعاء، بما علمتها من معاني التضحية والصدق والوفاء.

ولئن اقتضى الواجب أداء التعازي لأهله، فكلنا لك أهل وأهل للعزاء. ولكنه الإيمان بالقضاء يجمّل الصبر حين يشتد البلاء.

فاهناً بما قدمت يداك دكتورنا الحكيم، وانعم بجوار أعلام هذه الأمة، ومن سبقوا من الصحابة والأئمة المهتدين، وسلام عليك إلى يوم الدين.

﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً (٢٨) فَأَدْخُلْ فِي عِبَادِي (٢٩) وَأَدْخُلْ جَنَّتِي﴾ الفجر: ٢٧ -

٣٠

مصطفى بن صالح باجو

غرداية، الأحد 7 ذي القعدة 1441هـ 28 جوان 2020م